

الإنسان أو لا..



ركب إلى جوارى في الطائرة ذات مرة شاب غريب، بدت عليه ملامح الحزن والكآبة والانعزال عن الآخرين، وكأنّه يتوجس خيفة من كلّ أحد يجالسه أو يحادثه أو يصادفه.. ويتساءل عن نوع الأذى الذي ينوي إلحاقه به!

خطر في بالي أنّ هذا الشاب هو بيت مغلق بأقفال، ولكي تلج إلى هذا البيت لأي غرض؛ كان عليك أن تبحث عن المفاتيح.

ربما تريد أن تدخل مع هذا الإنسان أو غيره في مشاركة تجارية، أو في مشروع تقني، أو منجز ثقافي، أو تطمع في دعوته إلى خير، أو حمايته من شر، أو تريد أن تنتفع منه بحكم وجود حالة إيجابية لديه يمكن توظيفها.. وهب أنك تريد أن تقدم له خدمة ما يحتاجها..

أنت هنا أمام ثري، أو مبدع، أو قارئ، أو منحرف، أو شحاذ، أو ما شئت.

هو إنسان قبل أن يكون أيّاً من ذلك، ويوم ولد لم يكن له لون ولا شيء معه (وَاللّٰهُ أَخْبَرَ جَكَكُمْ مِّنْ بُطُونٍ أُمِّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) (النحل/ 78)، (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَنَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (الأنعام/ 94).

وأي محاولة تواصل تتجاوز مبدأ الإنسانية ستمنى بالفشل.

ومن حُسْنِ الحظ أنك أنت إنسان أيضاً، فلديك الكثير من المعرفة المفصلة والواقعية عن الإنسان وحاجاته وضروراته ومداخله ومشاعره وأحاسيسه..

لم يكن بمعزل عن الحكمة الإلهية العظيمة أن يبعث الله رسلاً من الناس، مثلهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون وينجبون، ويصحبون ويمرضون، تصيبهم اللأواء.

ولكلّ إنسان أسوار لا ينبغي اقتحامها ولا تجاؤها ومداخل تناسبه، بيد أنها تحتاج إلى اللطف والبصيرة وحسن التآتي.

وحين قال الرسول (ص): "فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَّحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْيَتَأْتِهِ مَنِيتُهُ" وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ولقيأت إلى الناس الذي يحبُّ أن يؤتى إليه..". (رواه مسلم)، كان يرسم منهجاً نبوياً رائعاً في التعامل مع الآخرين، أن تضع نفسك في موضع الإنسان الذي أمامك وأنت تتعامل معه، ما الذي يروقه ويعجبه منك؟

أن تثني عليه بخير، ولا أحد إلا ولديه من الخير ما يمكن أن يثنى به عليه، وبصدق، دون خداع أو تزويد.

أن تعرب له عن محبتك وتقديرك لشخصه الكريم.. وكيف لا تقدّر إنساناً كرّمه ربه واصطفاه وأحسن خلقه، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالدِّينِ وَالزَّكَاةِ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء / 7)، (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِلَى ذُنُوبِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر / 32)، (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين / 4).

انظر في عينيه، وابتسم له بصفاء، وصافحه بحرارة، وتحدث إليه وأنت منبسط هاش باش، واختر الكلمات الجميلة السحرية.

أضحك ضيفي قَلِيلَ إنزال رحله *** ويُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَحَلَّ جَدِيدِ

وما الْخَصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى *** وَلَكِنْ سَمَّا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيبِ

قبل أن تعطيه المال، أو توفر له الاحتياج، أو تجود عليه بما يطلب، أعطه وجهك وقلبك واحترامك وتقديرك، (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَدَّبَعُهَا أَذًى) (البقرة / 263)، اصنع هذا لزوجك الذي تدوم معه عشرتك طوال الحياة، واصنعه لولدك الذي خرج منك فأصبح كياناً مستقلاً له شخصيته وتكوينه وحسابه ومسؤوليته الكاملة في الدنيا والآخرة، واصنعه مع زميلك في العمل أو شريك أو جارك الذي تلقاه كل يوم أو كل صلاة، واصنعه مع الخادم أو السائق دون ازدراء لإنسانيته أو تحقير لشخصيته، واعتقد في داخلك أنه إن كان الفضلك عليه في الدنيا بمال أو منصب فربما يكون فضله عليك في الآخرة بتقوى أو إيمان أو سريرة من إخلاص أو عمل صالح.

واصنعه مع الغريب الذي تراه لأول مرة، وربما لا تراه بعدها لتوفر لديه انطباعات إيجابية عنك، وعن الفئة أو الجماعة التي تنتمي إليها، ولتمنحه قدراً من الرضا والسرور والفرح والاعتباط، وتبعث إليه برسائل من السعادة سوف يكافئك بها العظيم بما هو خير منها عاجلاً، فالمعطي ينتفع أكثر من الآخذ؛ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

واصنع ذلك بصفة أساسية لأولئك الناس الذين تريد أن توجههم أو تنتقدهم أو تقدم لهم نصائحاً يحميهم من ردى، أو يحملهم على هدى وأنت عليهم مشفق بارٌّ راشد.. فأياك أن تتعسف أو تتهم أو تجفو في أسلوبك؛ فتحكم على محاولتك بالفشل المحتم حتى قبل أن تشرع فيها، وكان الإمام أحمد يقول: "قلما أغضبت أحداً فقبل منك".

فاللّ أولئك الذين يتبوؤون مقام التعليم والدعوة والإصلاح والاحتساب.. نهدي هذه الكلمات النورانية النابغة من عمق التجربة، والمتوافقة مع هدي الأنبياء ومنهجهم، ونص القرآن ودعوته، رزقنا الحكمة والبصيرة وكفانا شر نفوسنا الأمارة بالسوء.

